جامعة تكريت

كلية العلوم الإسلامية

قسم الأديان المقارنة

محاضرات المرحلة الرابعة

مادة مناهج دراسة الأديان

اعداد: د. محمد حمد مهدي

المحاضرة الأولى التعريف بمناهج دراسة الأديان

مفهوم المنهج في اللغة والاصطلاح

المناهج لغةً: جمع منهج، وهي مشتقة من الكلمة الثلاثية (نهج).

قال ابن فارس في (مقاييس اللغة) عنها: النَّهْجُ : الطريق، ونهج لي الأمْرَ : أوضحه، والمنهج: الطريق، والجمع: المناهج) .

وقال الراغب الأصفهاني في المفردات: «النهج: الطريق الواضح، ونهج الأمْرُ وأَنهج: وَضَحَ، ونهج الإنسان الطريق: سلكه وبينه، وأنهج الطريق: وضح واستبان، والمنهاج: الطريق الواضح، قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا).

المنهج في الاصطلاح هو: الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة.

التعريف بعلم الأديان

علم مقارنة الأديان أو علم الأديان: هو اسم جامع لمختلف الدراسات العلمية التي تهتم بالأديان والدين عموماً، فهو يدرس المعتقدات والطقوس الدينية، مؤرخاً وواصفاً ومقارناً ومحللاً ومناقشاً ومنتقداً، بناء على أسس وضوابط علمية.

أو هو العلم الذي يهتم بالموازنة المنظمة للعقائد والممارسات في أديان العالم، ولهذا الأسلوب في الاستفسار فوائد كثيرة، ولكن الدراسة المقارنة للأديان تؤدي إلى فهم أعمق للاهتمامات الفلسفية الأساسية للأديان، مثل الأخلاق وما وراء الطبيعة وطبيعة وشكل الخلاص، ويتكون لدى الشخص الذي يعتني بهذا اللون من الدراسة؛ فهم واسع ودقيق للمعتقدات والممارسات الإنسانية، فيما يتعلق بما هو مقدس وروحاني وإلهي.

تُعد الدراسة المقارنة للأديان من الدراسات التي أسسها علماء المسلمين الأوائل وسبقوا بها الغرب قروناً عديدة، وقد حظي باهتمام متزايد في أوساط الباحثين المسلمين ومثقفيهم، فالواقع صار يفرض على الناس جميعاً التواصل والتعارف فيما بينهم، بما يسمح بإقامة علاقات إيجابية بينهم، ولا شك أن هذا التواصل لا يمكن أن يتم أو ينجح إلا من خلال ضوابط، لعل أبرزها التعرف على دين الآخر واحترام معتقداته، وهذا هو دور علم مقارنة الأديان الذي يعرِّفنا بأديان الآخرين ويجلّيها لنا مما يسهم في تعميق شعورنا بالتعدد والاختلاف وتقبل الآخر، وقد حصلت طفرة نوعية في دراسة مقارنة الأديان إذ صار تخصصاً أكاديمياً تطور داخل كليات اللاهوت المسيحية.

فوائد دراسة علم مقارنة الأديان

١- حفظ الإسلام، إذ يقدم علم مقارنة الأديان للمفكرين المسلمين أهم العناصر للدفاع عن الإسلام ضد التحديات التي تواجهه من قبل أعدائه.

٢- يبين لنا هذا العلم القيمة العظمى للقران الكريم بين الكتب السماوية الأخرى، بوصفه آخر كتاب منزل بحيث يتضمن جميع العقائد الواردة في الكتب السماوية الأخرى، ويضيف عليها تشريعاً يتناسب مع جميع الأزمنة والأمكنة إلى قيام الساعة، وهو بالإضافة إلى هذا، يؤكد وجوب الإيمان بجميع الرسل والأنبياء ورسالاتهم الأصلية، لا المحرفة.

٣- الرد على شبهات أهل الديانات، فهذا العلم يساعد الباحث على معرفة تأريخ كلِّ دين، وما حدث به من خلل أو تحريف، أثناء رحلته التاريخية، وما آل إليه من التحريف والتشويه.

٤- يعين هذا العلم على نشر الدعوة الإسلامية بين أهل الكتاب (اليهود والنصارى)، ولا بدّ لنا من التنويه إلى وجوب استعمال هذا العلم استعمالاً صحيحاً في الدعوة إلى الله عز وجل، لكي يثمر النتائج الخيرة والمرتقبة.

العوامل المساعدة لدراسة مقارنة الأديان

هناك عوامل عديدة تشجع المتدين لدراسة الأديان الأخرى والمقارنة بينها، بغية الوصول إلى الحق الذي لا يستطيع أحد أن ينكره، من هذه العوامل:

أولاً: وحدة المصدر للأديان

إن أصل كل الأديان في حقيقة يعود إلى أصل ومصدر واحد ، وهذا المصدر هو السماء، فمهما ادّعى الإنسان الابتعاد عن هذا المصدر، ووقع في الانحراف والتجرد من المبادئ السماوية؛ فإنّه يبقى ذات صلة بالسماء، فأصل كلِّ الأديان هو الله تعالى، فهو المبادر لإنشاء العلاقة بينه وبين عبيده، إلاّ الجنس البشري هو الذي يحاول أن

تشوه هذه الحقيقة، ويأخذ العبادة والمجد لنفسه وذلك بإطاعة النفس الشريرة والآمرة بالسوء دائماً.

ثانياً: سنية الاختلاف والتنوع في الكون والحياة

شاء الله سبحانه وتعالى أن يكون خلقه للأشياء مبنياً على التنوع والاختلاف، فلا يوجد شيءٌ خَلقه الله عز وجل يشبه الآخر تمام الشبه، فالأصول والمواد والأشكال والألوان مختلفة، وهذا الاختلاف والتنوع هو الذي يعطي الحياة معنى وحيوية واستمراراً ومقبولية، وكذلك الحال بالنسبة للفكر والعقل والاعتقاد، فلا يوجد نتاج عقلي ثابت ومقبول لدى الجميع، وكذلك الطبائع والعادات، فهي أيضاً مختلفة ولا يمكن فرض عادة واحدة على الجميع، لأنّ الغريزة والأصول التي بنيت عليها الأفهام والإبداعات مختلفة، وتبعاً لذلك فالنتاج العقلي والتراثي يكون مختلفاً.

لذا فإن الاختلاف يُعد أمرًا طبيعيًا في نظر الإسلام، فهو من سنن الله في الكون والمخلوقات، فالكون كلُّه قائم على التعدد والاختلاف في الأنواع والصور والألوان.

ثالثاً: وجود المشتركات بين الأديان

إنّ الدارس للأديان المتنوعة يجد جملة من المشتركات بينها، على الرغم من وجود الاختلاف بينها في الرسل والشرائع، بل يجد أنّها تشترك في الأمور الأساسية، التي تتعلق بمجال العقيدة والعبادات والقيم الأخلاقية، ويمكن تلخيصه فيما يلي:

١- الإيمان بالله والملائكة والرسل واليوم الآخر، خاصة الأديان السماوية.

٢- الإيمان بالغيب ووجود الثواب والعقاب.

٣- التأكيد على الفضائل والأخلاق والقيم الجميلة ومدحها، وذم الرذائل والدعوة إلى الابتعاد عنها.

٤- الدعوة إلى إقامة العبادات، من الصلوات والصوم والتضرع، بشكل مجمل لا على التفصيل.

٥- الدعوة إلى التسامح والإيثار والإحسان وحب الخير للآخرين.

رابعاً: خطاب القرآن الكريم للآخرين المختلفين

لقد أقرَّ القرآن الكريم التعددية، سواء كانت تعددية دينية أو خَلقية، واعتبرها بمشيئة الله عزَّ وجل، فهو الذي خلق البشر على هذه الوتيرة، قال تعالى: ((وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ))، قال القرطبي رحمه الله: (ولذلك خلقهم)، الإشارة للاختلاف، أَي وللاختلاف خلَقهم، يعني أنه للاختلاف خلقهم، خلقهم متغايرين في الفكر والإرادة، ولو شاء ربك لجعل الناس أمّة واحدة، ولكن إرادته اقتضت إعطاء البشر قدراً من الاختيار، ففي ذلك حكَم بالغة وغايات سامية وراء هذا الاختلاف والتعدد والتمايز، فهو الحافز للتنافس في الخيرات، والاستباق في الطيبات، والتدافع الذي يقوم ويرشد مسارات أمم الحضارات على دروب التقدم والارتقاء.

الحاجة إلى دراسة الأديان ومقارنتها في هذا العصر

إن هذا العصر هو عصر الصراعات الفكرية والإيديولوجية، وأصبح الدين ومفاهيمه هو المنطق الأساس في بناء الأفكار والسياسات الفكرية، الدينية والدنيوية. والأمة الإسلامية أحوج إلى دراسة الأديان والشرائع المختلفة والتعمق فيها أكثر من أي وقت مضى، وذلك للأسباب التالية:

١- إن الإسلام، دون بقية الأديان السماوية، يتعرّض للهجوم والاتهامات الباطلة.

٢- وصف الإسلام بالإرهاب والتطرف والتخلف والعدوانية، وربطه مع كلَّ الأحداث الشاذة والإجرامية التي تحدث في عالم اليوم.

٣- إبراز الوجه الحقيقي للإسلام، بأنّه دين التسامح والتعايش والانفتاح على الآخر والحوار واحترام حقوق الإنسان.

٤- والذي يدعونا إلى الاهتمام بهذا العلم أكثر، وتطويره وإبرازه إلى الوجود؛ هو قابلية المجتمعات الغربية اليوم واستعدادها لمعرفة الحقيقة وقبول الإسلام، رغم ما يتعرض له الإسلام من تشويه.

المحاضرة الثالثة المنهج المقارن

هو منهج يسلك سبيل الربط بين الموضوعات المتعددة، لاستخلاص أوجه الشبه أو الخلاف بينها، ثم الخروج من ذلك بحكم تدعمه نتائج العملية.

وعلم مقارنة الأديان يقوم بالأساس على المنهج المقارن، ولا شك أن المقارن يهدف من المقارنة معرفة أعمق بموضوع المقارنة، فيركز على ما بين موضوعي المقارنة من اتفاق أو اختلاف، أو متشابهات ومغايرات، وهذا المنهج في دراسة العقائد والأديان والملل والنحل، منهج فريد يمتاز بنتيجة مهمة وهي الخروج من تلك المقارنة بأوجه الحسن التي تدعو ضمناً إلى وجوب إتباعها، واطراح الباطل.

ومن ميزات هذا المنهج: إظهاره نقاط الاتفاق والاختلاف بين الفرق المتفرقة والأديان المختلفة، وهذا بدوره يؤدي إلى النظر الصحيح من قبل عقلاء تلك الطوائف في الحق الذي عند الآخرين، قال الله تعالى: {قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}.

ومما تجدر الإشارة إليه أن المقارنة عندهم لم تتخذ صورة واحدة أو شكلاً واحداً، وإنما اتسع مفهوم المقارنة لديهم وتمثل في صور متنوعة، منها على سبيل المثال: أن يدرس الباحث جانباً أو أكثر من ديانتين أو أكثر ثم يقارن بينهما، ومنها أن يتناول الدارس ديانة واحدة ويدرسها دراسة عميقة، من كل جوانبها، ومن صور المقارنة كذلك دراسة شخصية مؤسس الديانة، أو رسلها، مثل المقارنة بين المسيح عليه السلام، وشخص بوذا أو كرشنا، ومنها دراسة الأسفار التي يقدسها أصحاب الديانات، وعلماء الأديان الغربيون.

ومنهج التحليل والنقد من أبرز الخصائص التي امتاز بها العلماء المسلمون، ذلك أن طريقة المقارنة تهتم بدراسة مختلف أنواع الظواهر الدينية على الخصوص بتعيين وتحليل العوامل التي تؤدي إلى التشابه والفروق في الأنواع المعينة.

العامري والمنهج المقارن

هو أبو الحسن محمد بن يوسف العامري، ولد بنيسابور في أوائل القرن الرابع الهجري وتوفي بها رحمه الله عام (٣٨١هـ)، ولكنه لم يقض كل حياته بها، لأنه مثل علماء عصره كان محبا للترحال تواقا لطلب العلم من أماكن شتى، ولذلك وصف بأنه "كان من الجوالين الذين نقبوا في البلاد، واطلعوا على أسرار الله في العباد".

وبالنظر في مصنفاته:

في العقيدة، مثل: الفصول في المعالم الإلهية، والعناية والدراية.

في مقارنة الأديان، مثل: الإعلام بمناقب الإسلام، والأمد على الأبد، والإبانة عن علل الديانة.

في التفسير، مثل: الإرشاد لتصحيح الاعتقاد، وهو يدرس إعجاز القرآن.

في الأخلاق وعلم النفس، مثل: الإتمام لفضائل الأنام، والفصول الربانية في المباحث النفسانية.

يمكن الاستنتاج أن العامري كان موسوعي الثقافة حيث صنف في فروع المعرفة المختلفة.

منهجه في مقارنة الأديان

في كتابه: (الإعلام بمناقب الإسلام) يحدد العامري الأديان التي يقارن بينها وعناصر المقارنة ومنهجه في التناول، أما الأديان التي وقع اختياره عليها فهي الأديان الستة: الإسلام، اليهود، النصارى، الصابئة، المجوس، الوثنية، التي ذكرها الله تعالى في كتابه، وهي: (الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة)، أما الأديان التي لم يرد لها ذكر في القرآن فلم يعتبرها، وهو ما يبرهن على انطلاقه من مرجعية إسلامية، وأما عناصر المقارنة فهي تشمل ما يسميه (أركان الدين) أي العناصر التي تشكل جوهر الدين والتي تشترك فيها جميع الأديان، وهي:

العقائد وتشمل: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

العبادات وتشمل: الصلاة والزكاة والصيام والحج .

الشرائع وتشمل: المعاملات والحدود، وهذا الجزء لم يتناوله في كتاب الإعلام وإنما أفرد له كتابا مخصوصا هو الإبانة عن علل الديانة.

ولما كانت رؤية الدين لديه لا تقتصر على هذه النواحي الثلاث التي يتشكل منها وإنما يشمل التجليات التي أسفر عنها الدين في المحيط العام الذي طبق فيه، فقد شملت المقارنة أربعة عناصر إضافية هي: النظام السياسي، والنظام الاجتماعي، والنظام الثقافي الذي أنتجه، وكذلك الإسهام الحضاري لأتباعه.

القواعد والأسس المنهجية التي اتبعها العامري في دراسته المقارنة للأديان

أولاً: ألا يوقع المقايسة إلا بين الأشكال المتجانسة، أعني ألا يعمد إلى أشرف ما في هذا فيقيسه بأرذل ما في صاحبه، ويعمد إلى أصل من أصول هذا فيقابله بفرع من فروع ذاك، كالمقايسة والمقارنة بين بعض أصول العقائد في الأديان مع بعضها

الأخرى، والمقارنة بين أصول العبادات، ولا يعكس الأمر فلا يقاس الأصل بالفرع أو الفرع بالأصل، ولذلك قام في دراسته المقارنة بين الأديان الستة التي ذكرناها على الجوانب الأساسية المذكورة وهي: العقائد والعبادات وغيرها، وجعلها محورًا لدراسته بوصفها أصولا مشتركة.

ثانيا: لا يعمد إلى خلة موصوفة في فرقة من الفرق غير مستفيضة في كافتها، فينسبها إلى جملة طبقاتها، كأن يقارن بين عقائد المذهب الإباضي أو المعتزلي مع المذهب النصراني على أنها عقائد المسلمين التي تمثل كافتهم؛ أو بالعكس مع الأديان الأخرى.

ثالثا: اتخذ العامري منهجية عرض العقائد على العقول، ليتبين صدقها من كذبها، وذلك لأنه من القائلين بأن العقل السليم والنقل الصحيح لا يتعارضان، يقول: "من الواجب على الإنسان أن يعرض جميع ما يسنح لقوته المتخيلة من الأبواب الاعتقادية على قوته العاقلة؛ ليأمن به آفات الكذب"، وهذه مبادرة منه لعرض أسس الأديان حين المقارنة بينها على أدلة هي موضع اتفاق بين الجميع.

رابعا: انتقد العامري التقليد في البحث العلمي في مسائل العقائد والإيمان، رافضا التعصب لمعتقدات الآباء والأجداد، وحاثا على الرجوع إلى منهج القرآن الكريم، الذي يكون فيه المسلم قدوة بالإصلاح والإنصاف والعدل تجاه غيره، قبل أن يأمرهم بشيء من ذلك، وداعيا المتدين إلى: "أن لا يكابر ما أوجبه العقل الصريح لمحبة التقليد، وخصوصاً لمن لا يشهد له بالعصمة، فإن الحق لا يعرف بالرجال، بل يعرف بنفسه.

ويمثل لمنهجه ما أورده في كتابه في الفصل الخامس المعنون: (القول في فضيلة الإسلام بحسب الأركان الاعتقادية) بمقدمة نظرية تشير إلى وجود علاقة ارتباطية بين التوسط والاعتدال وبين قابلية الدين للبقاء والاستمرار، فيقول: "إن أحق الأديان بطول البقاء ما وجدت أحواله متوسطة بين الشدة واللين، ليجد كل من ذوي الطبائع المختلفة

ما يصلح به حاله في معاده ومعاشه، ويستجمع له منه خير دنياه وآخرته، وكل دين لم يوجد على هذه الصفة بل أُسس على مثال يعود بهلاك الحرث والنسل فمن المستحيل أن يسمى هينا فاضلا"، وهو يتناول بالتحليل خصائص العبادات الإسلامية مقارنا بينها وبين ما يوازيها من عبادات في الأديان الخاضعة للمقارنة، وهي:

الصلاة: ويسميها "العبادة النفسية" لاشتمالها على إخلاص النفس لله عز وجل والخضوع له، والصلاة في الإسلام تفضل الصلوات في الأديان الأخرى من وجهين: أنها وسط بين المغالاة في الكثرة (كصلاة الرهبان) أو القلة (كصلاة المجوس) ولهذا فهي بعددها تتيح للمسلم أن يحصل أسباب المعاش مع قضاء حق الله تعالى في التعبد، وهي كذلك بهيئتها تمثل الخضوع الكامل، وهي مخصوصة ببداية ونهاية ومصونة بكلام محدد، أما صلوات الأديان الأخرى فتنقصها هذه الخصائص فبعضها ركوع بلا سجود وبعضها غير معلوم البداية والنهاية، وبعضها مجرد تلفظ كالصلاة في المسيحية.

الصيام: ويطلق عليه "العبادة البدنية" وهو يفضل صيام الأديان الأخرى من وجهين: أنه وسط بين الطول (صوم المسيحية) والقصر (صوم المجوس)، وأنه من حيث الكيفية فهو وسط ومعتدل لا يؤدي لنحول الجسد (كصوم الثنوية والمسيحية)، وليس كصوم اليهود لا يعرف له نظاما مستقرا وأوقات مخصوصة لا يعلمها إلا الأحبار.

الزكاة: ويعرفها بأنها "عبادة مالية توجب على الإنسان الإنفاق على ذوي الحاجة من دخله من مصادر الثروة الثلاثة: الحيوانية والنباتية والمعدنية" وهي عبادة موجودة في جميع الأديان عدا المسيحية والمانوية، والزكاة في الإسلام تفوق الأديان الأخرى ويكفي لبيان ذلك الإشارة إلى اقترانها بالصلاة عماد الدين، وهي تتميز بالاعتدال إذ لا تتجاوز

ربع العشر، أما في اليهودية فتصل إلى العشر في النبات والحيوان، وأما المجوس فتوجب إعطاء الأزواج لبعضهم ثلث المال.

المحاضرة الثانية المنهج التاريخي الوصفي

ويعني تتبع نشأة وتطور الأفكار والمذاهب الدينية من خلال المراحل التاريخية المختلفة، وتحديد الدور الذي لعبته العوامل المختلفة التي تعامل معها الدين أو الأديان في هذه المراحل.

هذا المنهج يسلك فيه المؤلفون جانب العرض التاريخي الوصفي السردي، دون حكم على المقولات، أو نقد لها، حيث أصَّل علماء الإسلام هذا المنهج، ثم طبقوه بموضوعية ونزاهة على أديان العالم المختلفة، فكان لهم سبق كتابة تاريخ للأديان في الفكر الإنساني كله، قبل أوروبا بأكثر من عشرة قرون، مثل أبى عيسى الوراق (من مفكري القرن الثالث الهجري) الذي كتب في الوصف والتأريخ كتابه: (مقالات الناس واختلافهم)، والنوبختي في كتابه: (الآراء والديانات) ، وأبو المعالي العلوي في كتابه: (بيان الأديان)، وكتب كثيرون كتباً بعنوان (الملل والنحل)، مثل البغدادي أبى منصور، والشهرستاني، كما أن هناك من غير المسلمين من سلكه، وهو ابن كمونة اليهودي، في كتابه: (تنقيح الأبحاث للملل الثلاث).

والحقيقة أن هذا المنهج لا يؤدي الدور المطلوب من العالم، بل إن مثل هذا المنهج قد يؤدي إلى ما يسمى بتقارب الأديان، وربما كان هذا المنهج أوفر مناهج المسلمين حظاً وإشادة عند علماء الغرب، وبه يرتضون أن يتناول علماء الإسلام الأديان.

البيروني والمنهج التاريخي

هو محمد بن أحمد البيروني المكنّى بأبي الريحان (٣٦٢ ـ ٤٤٠هـ)، من أشهر العلماء في حقل العلوم والمعرفة في نطاقها الموسوعي؛ فهو الرياضي والفلكي والجغرافي والصيدلي والمؤرخ والدارس المتخصص للأديان والثقافات.

أراد البيروني رحمه الله بكتابه: (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) أن يطوّر معرفة المسلمين ببقية الأديان، وقامت دراسته على عمل ميداني هو المعاينة والحكاية والمقارنة، وكان عمله بمثابة بحث استطلاعي مهد لانتشار الإسلام في الهند، انتهج في الكتاب منهجًا جنبه التعصب والتعميم.

تناول البيروني رحمه الله بالتحليل والنقد مناهج المسلمين في دراسة الأديان وما تعلّق بها من طقوس وتقاليد، وصنف هذه المناهج إلى ثلاثة ضروب:

الأول: السماع بما هو مشافهة.

الثاني: الكتابة بما هي تدوين.

الثالث: المعاينة بما هي ملاحظة وتفكر.

ولئن فضل البيروني المصادر المكتوبة على المصادر الشفوية في مادة الأديان فإنه جعل كليهما في مقام دون المعاينة، ويبدو أنه كان على يقين بأن المكتوب كان في البدء شفويا واختلط فيه لحظة التدوين الأسطوري بالواقعي، ولعبت فيه الذاكرة الدينية الجماعية دورا في رسم معالم الذي يخالفنا في المعتقد.

تمثل الأخبار المدونة عند البيروني رافدا مهما في معرفة بقية الحضارات والديانات: فمن أين لنا العلم بأخبار الأمم لولا خوالد آثار القلم، ولكن هذا الرافد المعرفي محدود الآفاق ومليء بالنقائص، كونه يجمع صحيح الأخبار وفاسدها ويمزج بين الواقع والخيال، وعلى هذا الأساس نظّر لمنهج يقوم أساسًا على المعاينة فاستهل مقدمته بقوله: إنما صدق قول القائل ليس الخبر كالعيان، ويبدو أن اعتماد قول قائل يميز بين الخبر والمعاينة يعني أن هذا المنهج ليس من ابتكار البيروني بل هو وجه من وجوه

الثقافة العربية الإسلامية، ولكنه وجه خافت لا يكاد صوته يُسمع أمام هيمنة ثقافة السماع ومنهج المأثور.

حدد لنا البيروني مقاربته المعرفية التي اعتمدها في كتابه فجعل عملية الإدراك تتحقق من خلال قناة العين كما اشترط في موضوع الإدراك (المدرك) بما هو مجموعة من الظاهرات الثقافية والاجتماعية والدينية أن يكون محددا من حيث الزمان والمكان، فليس من المفيد أن نتحدث عن أديان وثقافات ولغات افتراضية ابتكرها الخيال ورسمت معالمها الذاكرة دون أن ندركها معاينة في سياقها التاريخي، ولقد نبه البيروني إلى ارتباط الخبر بحالة الإخباري ومشاغله، فهو إما متعاطف مع الملة موضوع الدرس أو متحامل عليها وهذا يؤثر في طبيعة الأخبار وصدقها وكأن الباعث على فعله من دواعي المحبة أو الغلبة أو من دواعي التحامل والغضب المذمومين، والملاحظ أن صاحب الكتاب أدرك أهمية التحرر من أسر العاطفة الدينية والتخلص من ثنائية المذموم والمحمود في دراسة الأديان دراسة موضوعية، فإن الغاية من دراسة الأديان بهذا المعنى لا تعني بالضرورة الانتصار لدين دون آخر، أو بيان عيوب منظومة عقدية دون غيرها، وعلى هذا الأساس انتقد البيروني سابقيه ممن اهتموا بحضارة الهند وتقاليدها الدينية، ورأى أن أكثرها منحول وبعضها عن بعض منقول وملقوط مخلوط غير مهذب على رأيهم ولا مشذب، ولذلك أقر البيروني بكل جرأة وصرامة بأنه لم يجد من أصحاب كتب المقالات أحدًا قصد الحكاية المجردة من غير ميل ولا مهادنة.

إن البحث الموضوعي في هذا المجال يتطلب حسب رؤية البيروني اعتماد منهج علمي ميداني لا يقوم على المعاينة فحسب بل كذلك على الحكاية، وقد ألزم البيروني نفسه أن لا يقحم نفسه في خطاب حجاجي يقوم أساسًا على مجموعة من الثنائيات من قبيل التقبيح والتزيين والحمد والذم والتصويب والتخطيء، فهذا الزاد الحجاجي سلاح من أراد الانتصار لملته وليس زاد العلماء الباحثين عن الحقائق، والبيروني رجل علم وعقل

لذلك أراد أن يجعل من كتابه كتاب حكاية، يقتصر فيه على نقل ما رآه في بلاد الهند من ظاهرات دينية وثقافية واجتماعية وما سمعه من خاصتهم وعامتهم وما قرأه في كتبهم بلسانهم وآية ذلك أن يورد كلام الهند على وجهه، وحتى يتسنى له معرفة معتقدات أهل الهند ومحاكاة ما رصده من طقوس وممارسات كان لزاما عليه أن يتطهر من كل الرواسب المعرفية المتعلقة بموضوع دراسته، وأن يقبل على علمائهم ورجال دينهم مستفسرا ومتعلما بل نجده يصرح دون حرج كنت أقف من منجميهم مقام التلميذ من الأستاذ لعجمتي فيما بينهم وقصوري عما هم فيه من مواضعاتهم، فلما اهتديت قليلا لها أخذت أوقفهم على العلل، وأشير إلى شيء من البراهين، وألوح لهم الطرق الحقيقية في الحسابات فانثالوا على متعجبين وعلى الاستفادة متهافتين يسألون عمن شاهدته من الهند حتى أخذت عنه، وأنا أريهم مقدراهم وأترفع عن جنبهم مستنكفًا، فكادوا ينسبونني إلى السحر ولم يصفوني عند أكابرهم بلغتهم إلا بالبحر.

لقد عاش البيروني في الهند وتجول في أرجائها، وتعلم لغتها وأتقنها، وحاور علماءها، واختلط مع عوامها، وحضر أعيادها ومواسمها وشاهد معابدها كما شهد مناسكها وقضى في كل ذلك ثلاثين عاما على اختلاف الروايات حتى أذهل علماء الهنود أنفسهم بسعة علمه، وعلو مرتبته وكمال فهمه وترجم إلى العربية بعض كتبهم كما ترجم إلى لغة الهند بعض التراث اليوناني والإسلامي حتى أظهر في النهاية كتابه تحقيق ما للهند مسك الختام على أبدع ما يكون المنهج.

ومما يمثل لمنهج البيروني رحمه الله في بيان منهجه ما أورده في حال الأرواح وتردّدها بالتناسخ في العالم، فيقارن الديانة الهندية ببقية الأديان من خلال رموزها التأسيسية، وكما أن الشهادة بكلمة الخلاص شعار إيمان المسلمين، والتثليث علامة النصرانية، والإسبات علامة اليهودية، كذلك التناسخ علم النحلة الهندية فمن لم ينتحله لم يكن منها، وهذا الضرب من المقارنة يعكس القدرة على التأليف واختزال الديانات في

علامات دالة عليها. ويبدو أن هذا الأسلوب ييسر فهم الظاهرة الدينية المدروسة ويمكن القارئ من تبين خلفياتها.

وتتجلى الموضوعية عند البيروني في دراسته للأديان في كتابه (تحقيق ما للهند) من خلال السمات الآتية:

السمة الأولى: إتقانه للغة السنسكريتية، وهي اللغة التي كتبت بها الكتب المقدسة عند الهندوس وإقامته الطويلة في الهند.

السمة الثانية: علاقته المباشرة مع موضوع دراسته ومعرفته للفلسفة ودراسته له، فتكوينه الفلسفي أهله للخوض في قضايا الفكر الديني الهندي الذي يمتزج بالفلسفة، فضلا عن بذله أقصى الوسع في دراسته للمعتقدات الهندية، فقد بذل البيروني جهدا كبيرا في دراسته للفكر الديني الهندي، ويعبر البيروني عن ذلك بقوله: "وقد أعياني البحث فيه، مع حرصي الذي تفردت به في أيامي، وبذلي الممكن، غير شحيح عليه في جمع كتبهم من المظان، وقد اتبع البيروني المنهج الوصفي في دراسة الفكر الهندي، يقول: وأنا في أكثر ما سأورده من جهتهم حال غير منتقد إلا عن ضرورة ظاهرة".

السمة الثالثة: رجوعه المباشر إلى المصادر الدينية المعتمدة لدى الهنود: فقد استطاع البيروني أن يعيد صياغة التصورات العامة التي صبغت صورة الهند لدى العديد من المؤلفين المسلمين، والتي غلب عليها الكثير من التزيين المبالغ فيه، ويرجع بعضهم سبب ذلك إلى بعد المسافة، وغرابة الحضارة، وندرة المعلومات.

المحاضرة الخامسة مشكلة المنهج في علم الدين المقارن في الغرب

ظهور علم الأديان المقارنة في الغرب ودوافعه

ظهر علم الدين المقارن في الغرب في وقت كان الصراع بين الدين والعلم على أشده عندما كان العلماء يتجهون اتجاهاً معاكساً تماما لاتجاه الكنيسة و بابواتها، مع تدهور في نظام الكنيسة، وضعف واضح في سلطتها التي كانت تتمتع بها عبر العصور وبخاصة في العصور الوسطى، وقوة نسبية اكتسبها العلماء نتيجة ما توصلوا إليه من اكتشافات أقنعت الناس بقيمتها، وجذبتهم إلى رحابها يحاولون فهمها، ويقدرون رجالها، ويذهبون وراءهم يستهدونهم ويستفتونهم ليس فقط في مسائل العلم الطبيعي وموضوعاته، إنما في جميع ما يتعلق بالحياة الإنسانية في أبعادها المختلفة، وجوانبها المتنوعة، ومناحيها المتعددة، الأمر الذي جعل العلماء يخولون لأنفسهم سلطة إخضاع كل شيء لمقاييسهم المادية، وبحث كل شيء في ضوء مناهجهم التجريبية.

وظن الناس والعلماء معهم في أغلب الأحيان في ظل انبهارهم بالنتائج التي توصلوا إليها في المجال الطبيعي أن لدى العلم الطبيعي إجابة على كل سؤال واستفسار يتعلق بأي أمر من أمور الطبيعة وما وراء الطبيعة، أو أن له القدرة على بحث كل شيء متعلق بهذه العوالم، بل إنه الوسيلة الوحيدة بها يعرف الخير والشر، وبه يحسم الخلاف في كل ما يتعلق بالإنسان والكون، والخالق عز وجل ، وبطبيعة الحال، وبحكم الظروف المختلفة من انتصارات غربية في ميادين العلم والسياسة، وانحطاط وتدهور في أنظمة الكنيسة، وتأييد شعبي للعلم والعلماء كان العلماء في مواجهتهم مع الكنيسة في وضع يردون الصاع صاعين، وما فعلته الكنيسة بالعلماء في بداية العصر الحديث كان العلماء في وضعهم الجديد يفعلونه بالكنيسة وأصحابها.

في هذا الجو المشحون بالحماس للعلم وأهله، والبعد عن الدين ممثلاً في رجال الكنيسة في تصرفاتهم وسلوكياتهم كان على أي نظرية أو مذهب أو دين أو فلسفة تريد أن تجد لها أرضا وقبولاً وأنصاراً وثباتاً، أن تقدم نفسها في صيغة يرضى عنها العلماء الطبيعيون وهم أصحاب الكرة الآن ولو في المناهج على الأقل، والمناهج تمثل العمود الفقري لأي فلسفة أو مذهب أو نظرية أو علم، كما كان على هذه المذاهب والآراء والنظريات والفلسفات والأديان أن تبتعد عن أي شيء ينبئ عن عداوة للعلم وأهله، أو يشير ولو من بعيد إشارة تسيء إليهم، انظر إلى ما قاله أحدهم وما يقوله يعبر عن المزاج العام لهذه المرحلة مرحلة ظهور علم الدين المقارن في الغرب: يبدو العلم كاسحا كل ما أمامه، وفي سكرة النجاح بدا قادرا على بيان كل شيء وفي عقول الكثيرين كان هناك اقتناع بأن فجر عصر جديد قد بزغ، وأن الإنسان بقدراته المستقلة على وشك التغلب على جميع العقبات التي تعترض طريقه نحو التقدم والسرور، أما فيما يتعلق بالدين والإله فلن تكون هناك أي حاجة إليهما.

ونستطيع أن ندرك دقة هذا الوصف لتلك المرحلة إذا تأملنا ما قاله John Tyndall" في عام ١٨٧٤م أي بعد بضع سنوات فقط من ظهور الدين المقارن كفرع علمي مستقل بصفة رسمية قال: (نحن ندعي وسننتزع من اللاهوت جميع النظريات الكسمولوجية، وإن الأنظمة المختلفة التي انتهكت حتى الآن حرمة العلم الطبيعي عليها أن تسلم نفسها للعلم وتخضع لحاكميته، وتتخلى عن أي تفكير للتحكم فيه وإن على جميع الأنظمة أن تتعلم التكيف مع ما يقتضيه التطور العلمي أو تنسى نفسها تماما)، فظهر علم الدين المقارن في هذا الجو ليكون جسرا بين العلم والدين.

وكما ينقل عن "Max Muller"و.sharpe": (وبما أن العلم والدين يمثلان نقيضين لا يجتمعان يمكن أن يكون هناك علم للأديان ينصف الاثنين)، لقد كان ظهور علم الدين المقارن في الغرب في العقد السادس من القرن التاسع عشر إيذانا ببروز اتجاه جديد

يحاول دراسة الأديان من وجهة نظر علمية صرفة وإن كانت طبيعة هذه النظرة العلمية وحدودها غير محددة، وكان هناك اتفاق على أن تكون هذه الدراسة العلمية مبنية على معطيات بعيدة عن مسلمات الكنيسة ومبادئها اللاهوتية الموروثة، وكان علم الأديان قد ظهر في كبريات الجامعات الغربية، كجامعة شيكاغو التي فتح فيها قسم خاص سمي (الأديان المقارنة) في سنة ١٨٩٣م؛ وفتح قسم باسم علم الأديان، في جامعة مانشستر سنة ١٩٠٤م، وجامعة السوربون سنة ١٨٨٥م بعد ما قرر البرلمان الفرنسي بفتحه، كما فتح أول كرسي لعلم الأديان في ألمانيا برلين سنة ١٩١٠م، وقد فتح كذلك بإيطاليا أول كرسي لعلم الأديان بجامعة ميلانو سنة ١٩١٢م.

وعندما كان ماكس ميولر يشير إلى أن مقارنة الأديان علم مبني على مقارنة علمية محايدة لجميع الأديان أو على الأقل للأديان العالمية الكبيرة فإن مفاهيم الكلمات التي استخدمها في هذا السياق لم تكن واضحة محددة في أذهان الناس ولا في أذهان العلماء ما المقارنة؟ وما العلمية؟ وما المحايدة وحدودها؟ ثم ما الدين نفسه ؟ كل هذه الأسئلة التي لم تحدد إجاباتها تركت الباحثين بطبيعة الحال يأخذون الأمر كما يروق لهم، الأمر الذي يسبب مشاكل منهجية كثيرة فيما يتعلق بهذا الفرع من النشاط الفكري، ولا زال الباحثون حتى الآن وقد مضى أكثر من قرن على ظهور هذا العلم عاجزين عن تحديد معاني هذه الكلمات بصورة دقيقة يتفق عليها، ويعمل بها.

ولا أحد يستطيع أن يختلف مع Sharpe المؤرخ الأكثر شهرة لتاريخ مقارنة الأديان في الغرب عندما يقول: وإن قيام علم الدين المقارن يتوقف على توافر شروط ثلاثة أساسية، وهي:

أولا: دافع قوي للقيام بالدراسات المقارنة حول الأديان.

ثانيا: توفر المادة العلمية اللازمة.

ثالثا: منهج مقبول لدى الجميع ينظم هذه المادة العلمية ويجعل منها بناءً محكما.

وعندما ظهرت مقارنة الأديان في الغرب كان قد توفر لها الشرط الأول مع توفر الجهود على توفية الشرط الثاني، فقد كان هناك الرغبة الأكيدة لفهم الأديان، ودافع قوي كما يبدو من كثرة الكتابات في هذا المجال لإجراء مقارنات بينها، وقد اتجهت أنظار العلماء في مجال مقارنة الأديان إلى أديان الأرض المختلفة التي كان ينظر إليها من قبل على أنها وثنيات لا يليق بالعالم المسيحي الاهتمام بها ولا دراستها.

إن اندفاع طائفة من مفكري الغرب إلى الاهتمام بالأديان العالمية ذلك الاهتمام الذي يعد مظهرا بارزا من مظاهر الاعتراف بالأديان الأخرى هو في ذاته دليل قوي على توفر هذا الدافع، وقد لا نتفق نحن المسلمين مع علماء الأديان الغربيين في تعريفهم للدافع المطلوب بجميع عناصره التي منها: (الاستعداد للتنازل عن عقيدتك الخاصة قليلا ليحل محلها اهتمامك بالدين الآخر مع الإيمان بأن فيه أيضاً شيئا من الحق) أو بعبارة أخرى إن الدافع المطلوب هنا يتضمن الاعتراف بأن الأديان جميعا تتقاسم الحق بنسب متفاوتة وإن الحق ليس ملكا لدين واحد، وإننا قد لا نتفق على هذا العنصر من عناصر مفهوم الدافع المطلوب هنا كشرط أساسي لقيام مقارنة الأديان، لكننا لا نستطيع إنكار توفر مثل هذا الدافع المطلوب لدى علماء الغرب إبان ظهور هذا العلم بغض النظر عن مدى التزامهم بعناصره ومقتضياته.

ومما لا يجب أن ينكر لعلماء مقارنة الأديان في الغرب أنهم كانوا يملكون شجاعة نادرة عندما ظهروا في وسط يعج بالعداء نحو الأديان غير المسيحية ليخاطبوا العلماء باسم الدين ويخاطبوا أصحاب الكنيسة باسم العلم ويحاولوا التوفيق بين العلم والدين أو مع أحسن تعبير بين رجال العلم ورجال الدين ثم وفوق هذا كله يصرحون أمام أرباب الكنيسة الذين يعتبرون كل دين غير المسيحية ضلالا وكفرا وعملا من أعمال

الشيطان، بأن الأديان الأخرى أيضا تستحق الدراسة والبحث بل الاستفادة منها، وأنها تشتمل مثل المسيحية على شيء من الحق، وبطبيعة الحال لا يتصور هذا الموقف من علماء الأديان لولا وجود مثل ذلك الدافع القوي للدراسة والمقارنة، وكذلك لا تتصور تلك الكتابات الكثيرة عن الأديان الأخرى والاهتمامات الزائدة عنها بدون هذا الدافع.

فكما توفر الدافع قد توفر لهذا الفرع الجديد من النشاط الفكري من يتوفر على تجميع المادة العلمية اللازمة، فقد بدأ العلماء في البحث عن المصادر الأساسية للأديان على اختلافها وترجمتها إلى لغاتهم مع اهتمامهم بأبحاث الأثريين وعلماء الأنثروبولوجيا واكتشافاتهم التي اعتبرها علماء الأديان مصدرا أساسيا لمعرفة أصل الدين ونشأته وتطوره.

ويمكنك أن تنظر إلى ذلك المشروع العلمي الضخم الذي أنجزه ماكس ميولر مع معاونة زملائه باسم كتب الشرق المقدسة(Sacrad Books of the East) في خمسين مجلدا، ان توفر عدد من الباحثين على ترجمة هذه الكتب الصعبة من لغتها الأصلية مع شروح وتعليقات، وتمويل هذا المشروع وأمثاله من قبل مجموعات لا تنتمي إلى الكنيسة ينبئ عن توفية الباحثين للشرط الثاني وقيامهم عليه، كما ينبئ عن توفر ذلك الشرط الأول وهو الدافع على أقوى صوره بغض النظر عن خلفية هذا الدافع هل هي سياسية محضة ؟ أو علمية بحتة؟ أو هما معا ؟

أما الشرط الثالث الأساسي ألا وهو المنهج فهو الذي لم يتوفر لمقارنة الأديان في ذلك الوقت، بل ظل أمر المنهج هو القضية الكبرى التي شغلت الباحثين في مقارنة الأديان منذ البداية وإلى يومنا هذا، حتى أصبح البحث عن المنهج المناسب وتقويم المناهج التي تستخدم فرعا علميا مستقلا في الجامعات الغربية في أقسام مقارنة الأديان ألا وهو مناهج البحث في مقارنة الأديان، حتى أصبح موضوع الأديان المنهج مشكلة المشاكل

في هذا المجال تعقد بسببه المؤتمرات، وتنشر لأجله الكتب والمذكرات، وتصدر لأجل تنشيط البحث فيه الصحف والمجلات.

إن أهمية المنهج في أي علم وفي أي نشاط فكري ليست موضع مناقشة، ومن المستحيل تصور علم بدون أن يكون له منهج مناسب يستخدمه في تناوله لقضاياه، وفي دراسته لموضوعاته، وعلم بدون منهج يمكن أن يكون أي شيء غير العلم، ومن شأن المنهج في أي علم أن يكون حائزا لرضا جمهور المشتغلين في المجال وقبولهم، وترك موضوع المنهج مفتوحا ليتبنى كل واحد المنهج الذي يرتاح إليه يجعل من المستحيل تحديد هوية هذا العلم وتعيين اتجاهاته ثم تقويم نتائجها، فوجود منهج واحد محدد أو مناهج مختلفة محددة متفق عليها أمر لا يتوقع فيه مناقشة أو جدل، ولقد غاب هذا المنهج المتفق عليه أو المناهج المتفق عليها منذ البداية في مجال مقارنة الأديان.

وإذا كان المنهج في أي علم هو الخطوات المنظمة التي يتبعها الباحثون فيه للوصول إلى بغيتهم بصورة دقيقة فإن غياب هذا المنهج في الحقيقة يجعل نشاط العلماء والباحثين عبثاً فكريا يضلل الناس بدل أن يهديهم، ويحيرهم بدل أن يقدم لهم ما يزيل حيرتهم.

المحاضرة الرابعة المنهج العلمي الشامل في دراسة الأديان

المراد بالمنهج الشامل هو المنهج الذي يشمل جميع المناهج السابقة، حيث يهتم بعرض ما يتناوله بالدراسة عرضاً أميناً، مع المناقشة، والمقارنة، والتحليل النقدي، ورد الباطل وبيانه، وقد يتم ذلك في قالب حوار، أو مناظرة.

وهذا المنهج الشامل هو الأمثل في تناول دراسة الأديان، إذ وصف الأديان وحده لا يغني، كما أن المقارنة غير الموجهة غير مجدية، والنقد والردود قبل استيفاء العرض والمناقشة قد يكون فيها مجانبة للأمانة والإنصاف، ومن تتبع كتب المسلمين في دراسة الأديان يجد هذا المنهج الشامل.

الباحث أحمد شلبي ومنهجه في دراسته المقارنة للأديان من خلال كتابه: مقارنة الأديان: اليهودية والمسيحية

قبل كل شيء بسط الباحث أحمد شلبي رحمه الله رداء التضرع إلى الله عز وجل؛ كي يعينه ويوفقه بتكميل كتابه هذا، والذي كان الغاية من تأليفه كما قال: "الطمع في رحمة الله، إنه القربى التي أمسكها بإحدى يدي وأمسك كتاب (الإسلام) باليد الأخرى وألوح بهما في شكر وتواضع، ذاكرا أنهما ساعدا على تقديم الهداية لملايين البشر، وإنقاذهم من التبشير ووسائله"، وهذا ما انتهجه الفيلسوف أبو الحسن العامري أيضاً، وهذا هو هدف كل مسلم، وهو كسب رضى الله تعالى وتوفيقه وبه سيصل إلى الحقيقة والنجاح في كل شيء بعد الجد والاجتهاد والأخذ بالأسباب.

وقد نهج الأستاذ أحمد شلبي في دراسته للأديان ومقارنته لها منهج الاستقراء والوصف والتحليل ومنهج النقد العلمي، فيستقرئ ويتتبع أدلة كل فريق؛ مؤكدا ذلك بقوله: فكنت أتتبع النصوص لتقودني إلى الغاية"، لكي يقارن بها بين الأسس المشتركة بين الأديان، ويقوم بوصف تلك الأدلة وتحليلها تحليلا موضوعيا نقديا؛ مبنيا على الوصف الظاهراتي القائد بنفسه إلى الغاية؛ أو بشكل آخر كان يستقرئ الأدلة

والنصوص، كي تتبين الفكرة الغالية بنفسها دون فرض الحكم عليها بالفكر الشخصي الذاتي البعيد عن مضمون موضوعه أو المفهوم الأصلي لتلك الفكرة الذي من أجله استقرأت الأدلة، وهذا المنهج هو المسمى بمنهج الوصف الظاهراتي (الفينومينولوجي).

المناهج المتبعة عند الدكتور احمد شلبي في دراسته المقارنة للأديان هي كالآتي:

أولا: المنهج التحليلي والنقدي العلمي

وهذا المنهج يتبين في طرح الشلبي لفكرة أن المسيحية كثيرا من معتقداتها وشعائرها من البوذية، فالتثليث والأقانيم وقصة الصلب للتكفير عن خطيئة البشر والزهد والتخلص من المال للدخول في ملكوت السماوات والرهبانية كلها مستعارة من البوذية التي سبقت المسيحية بعدة قرون"، وهذا منهجه في التحليل أو البيان النقدي، ولكن لم يكن ليعلق وينقد قبل إيضاح ذلك الفكر النقدي من الأدلة المستقاة من مصادرها الأصلية، وهنا تتبلور منهجية أخرى للباحث من مناهج البحث العلمي، وذلك إعطاء الصبغة العلمية على الشيء من قبل أهلها، ثم استدراك الحكم عليه من قبلهم، والبناء النقدي على ذلك، ويتضح أكثر بأن دراسته للأفكار المتعلقة بالأديان، كانت تسري حسب ما يفهمه أهل ذلك الدين في الأغلب، كما يتبين ذلك في خطة بحثه مثل نماذج من التشريع المسيحي: العبادات، تشريعات حول الأسرة الاهتمام بكثرة النسل، وفقر في التشريع، والكنيسة وأسرارها: طقوس الكنيسة، وأسرار الكنيسة والرهبنة والأديرة، مراحل الرهبنة، أسس الرهبنة.

ففيما مر بيّن الباحث ما هو سائد في الفكر المسيحي منه العبادات، تشريعات حول الأسرة، الاهتمام بكثرة النسل الكنيسة وطقوسها وأسرارها؛ إلا أنه في الفقرتين الأخيرتين اللتين هما: فقر في التشريعات، والرهبنة اقتباس من الفكر الهندي، قام بتحليل نقدي مخالف لما يعتقده النصارى بتتبعه أدلة أوصلته إلى تلك النتيجة.

ويتبين هنا أن الموضوعية في مقارنة الأديان تكون في سرد الأدلة بأمانة علمية من غير تقطيع ولا تأويل بحيث يزيغ الفكر الأصلي عن الموضوع؛ أما إذا أوصل الدليل إلى النتيجة المخالفة للفكر السائد، فلا يعتبر ذلك خروجا عن الموضوعية؛ وإلا فلا تبقى في دراسة الأديان ومقارنتها، ودراسة العلوم الأخرى قيمة ومعنى فيما إذا اختزلنا حقيقة الأشياء على السائد والأغلب من فكر القوم؛ لأن الحق لا يعرف بالأغلبية ولا بالكثرة؛ وإنما يعرف بالحق أهله؛ سواء كان واحدا أو جماعة.

ثانيا: المنهج التحليلي النقدي المبني على الوصف الظاهراتي

إن دراسته المقارنة للأديان مبنية على التحليل النقدي المبني على الوصف الظاهراتي كما مر؛ لكي يصل بالإنسان إلى الغاية المرجوة من الفكرة المقارنة، ويتبين هذا من خطة بحثه في المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية.

الفكر المصري في المسيحية.

الوثنية في المسيحية.

مقارنة العقائد الوثنية بعقائد المسيحية الحالية.

مقارنة بين محاكمة بعل ومحاكمة نبي الله عيسى عليه السلام.

مقارنة بين حياة بوذا وحياة نبي الله عيسى عليه السلام.

الكنيسة في خدمة السياسة الغربية.

وكذلك التعريف بالأناجيل:

إنجيل متى، إنجيل مرقص وإنكار ألوهية المسيح، جثمان القديس مرقص بين القاهرة والبندقية، إنجيل لوقا، إنجيل يوحنا ومن الذي كتبه، حديث عن إنجيل برنابا وعن برنابا مؤلفه، المسيح ينكر القول بألوهيته ويقرر بشريته.

ومن يتأمل فيما سبق يجد أن تلك العناوين هي مضمون نقده لما عند النصارى من فكرة التثليث ومحاكمة المسيح عليه السلام، وتعقيبه بخدمة الكنيسة السياسة للغرب؛ والمحور الآخر: التعريف بالأناجيل وألوهية المسيح في إنجيل مرقص مستدلا بقول المسيح نفسه، وتحليله النقدي لكتابة إنجيل يوحنا، وكلامه في إنجيل برنابا، فكل هذا دليل على استخدامه منهج التحليل النقدي المبني على الوصف الظاهراتي.

ثالثا: منهج النقد التاريخي

مما يؤكد التزام الأستاذ الشلبي رحمه الله بمنهجه هذا، عرضه لأفكار تحليلية نقدية تجاه فكر وديانة؛ تخالف ما عليه غالب أهل ذلك الفكر والديانة، ولكن مستدلاً بأقوال أصحابها وأدلتهم، وأهل الاختصاص منهم، كي لا يتهم أن ذلك من عنده، كما في عرضه أن الكنيسة هي في خدمة السياسة الغربية الاستعمارية على الدول النامية، فيستدل بأقوال المختصين بشؤون السياسة والدين من المسيحيين، فيقول: "ويندهش الباحث عندما يرى كبار رجال الكنائس يتناسون المسيحية ومبادئها الأصلية السمحة، ويجندون أنفسهم لخدمة الاستعمار، وهم يتخذون الدين المسيحي وسيلة للضغط على الشعوب المسيحية النامية حتى لا تتطور، وحتى تبقى بمنأى عن الرقي والتصنيع والتقدم.

يقول الدكتور احمد شلبي رحمه الله: "لست أنا الذي أقول هذا القول، وإنما هي كلمات مسيحي مثقف هو الدكتور رمزي فهيم فيقول: منذ عدة سنوات كنت أقرأ عن اجتماعات وقرارات مجلس الكنائس العالمي، ولقد فوجئت حين وجدت أن ما يتعرض له من مسائل ليست من الموضوعات الدينية التي ينتظر أن تكون هي موضوع اهتمامه، فمثلا عقد المجلس مؤتمراً في مدينة سالنيك باليونان سنة ١٩٥٩م، قرر فيه أن السياسة هي المجال الذي يتحتم على الكنيسة في دول إفريقية وآسيا وأمريكا اللاتينية أن تعمل فيه،

والغريب أن المجلس يقرر في نفس المؤتمر أن المبدأ الغربي الذي يقضي بفصل الدين عن الدولة، لا يمكن اقتباسه في الدول النامية، وهنا يثور التساؤل هل هناك نوعان من المسيحية أحدهما يطبق في بلاد الغرب والآخر (يفبرك) بواسطة (الخبراء) ليعمل به في الدول النامية"، وأتى له بكلام كثير فيما يتعلق بهذا الموضوع معتمدا على حقائق تاريخية وقعت في القرن العشرين، وهذا هو المنهج النقدي التاريخي لتثبيت الحقائق، والذي بنى به الأستاذ بحثه العلمي، ويعتبر عند علماء الغرب أن هذا المنهج من الركائز الأساسية لدراسة الأديان ومقارنتها؛ لكون مصطلح مقارنة الأديان (comparative religion) هو : بيان فلسفة الأديان، وتاريخه، وأن تتخذ أصول الأديان مواضيع للدراسة العلمية بمناهج موضوعية لها أصولها وخصائصها.

رابعا: المنهج الاستقرائي

لو نتتبع خطة بحثه نجد المنهج الاستقرائي لائحاً فيه، وذلك بالأدلة الجزئية الآتية على هذه المواضيع: اليهود في التاريخ، المنطقة وسكانها، المناطق المحيطة، تحركات العبرانيين، لغة العبرانيين، الهكسوس والعبرانيون في مصر وخروجهم منها، إسرائيل وبنوه في مصر، بعد الخروج من مصر.

خامسا: منهج ثبت المصادر والمراجع

من سبل المنهجية العلمية عنده ما يتعلق بثبت المصادر والمراجع التي ترجع إليها دراسته، يقول: من المفاخر التي أشعر بها وأحمد الله عز وجل عليها أنني اتبعت الفكرة الأصلية فيما يتعلق بالمراجع في دراسة مقارنة الأديان، فاعتمدت أساساً على المراجع الرئيسية، ودرست عقائد هذه الديانات وعرضت أفكارها من مراجعها، وكان هذا سبيلي في كل هذه الكتب".

سادسا: المنهج الموضوعي والحيادي في دراسته المقارنة للأديان

التزم الدكتور أحمد شلبي رحمه الله بمنهج الحيادية والموضوعية في دراسته المقارنة للأديان، وعهد على نفسه الوفاء به كي يخرج من كتابه مادة فتية فيما يتعلق بعلم الأديان، وفق منهجية البحث العلمي الذي هو: الاستمرارية في البحث عن المعلومات والسعي وراء المعرفة باتباع أساليب علمية مقننة"، إذ يقول: "وسرت في مقارنة الأديان قد اتخذت الصبر وسيلتي، ورحت في بحث علمي لم تتدخل العاطفة فيه، سرت والحيدة طريقي، لا أحيد عنها ولا أنحرف، فكنت أتتبع النصوص لتقودني إلى الغاية، دون أن أفرض نفسي أو فكري عليها، وكان هدفي أن أجعل الدراسة موضوعية لا ذاتية، ولا شك أن هذا هو الطريق الصواب، ولقد حاولت جهدي أن أكون منصفا وموضوعياً وأرجو أن أكون قد وفقت فيما حاولت الوصول إليه".

ويلوم الباحث بعض المفكرين الذين استعملوا علم مقارنة الأديان في بحوثهم بدون قصد الخوض فيه، ثم إنهم يقولون بالتفاضل بين الأديان بنتائج غير مبنية على مقدمات علمية، مبيناً أن علم مقارنة الأديان يخرج منها ثروة فكرية رائعة تبرز جمال الإسلام ورجحانه على سواه، فعلم مقارنة الأديان يمسك القضايا الدينية، ويشرحها ويبرز عناصرها، ويقارن بينها"، ثم قال: "كما فعلنا في قضية الألوهية حيث عرضنا اتجاهات الأديان المختلفة تجاه الله سبحانه وتعالى، وقد وضحت هذه الاتجاهات أن الفكر الإسلامي قمة شامخة، وأن ما سواه حافل بالانحراف والوثنية والتعدد، ومثل هذا ظهر عندما تدارسنا معجزات الأنبياء، والكتب المقدسة، والتشريع".